الباب الثالث

السلوك في طريق التصوف

١- البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته و توجيهاته.

٢- مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

٣- أداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها.

٤- الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال مع الصلاة على النبي ﷺ.

٥- السعي على سلامة القلب وصلاحه.

٦- التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغُهُ الطريق وتدله عليه.

- يقول الإمام القشيري تحت عنوان الشريعة والحقيقة: (الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية (أي رؤيتها بالقلب)، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.

والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر.

سمعت أبا علي الدقاق رحمه الله (صوفي، فقيه، أصولي) يقول: (إياك نعبد) حفظ للشريعة، و(إياك نستعين) إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إنّ المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره). (الرسالة، القشيري)

- فبعد الأبحاث النظرية عن علم التصوف وما يتعلق به، كان لابد من دراسة حقائق التصوف؟ وكيف يمكن سلوك طريقه؟ وهذا أهم شيء يجب أن يبحث عنه من أراد التعرف حقاً على طريق أهل التصوف الذين هم أهل الله ﷻ وخاصته، وأهل الصفاء والنقاء، وأهل الولاية والعرفان، وأهل التقى والنقاء، أحباب الله والدعاة إليه، وأهل الإخلاص والصدق مع الله، وأهل القرب والاستقامة.

فمن أراد أن يسلك مسلكهم، وأن يتتبع خطاهم وجب عليه أن يسعى للسير في خمسة مطالب:

المطلب الأول: البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

المطلب الثاني: مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

المطلب الثالث: أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها.

المطلب الرابع: الإكثار من ذكر الله في كل أحواله مع الصلاة على النبي ﷺ.

المطلب الخامس: السعي إلى سلامة القلب وصلاحه.

المطلب السادس: التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغه الطريق وتدله عليه.

المطلب الأول: البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

- إن أول طريق التصوف لمن أراد أن يسلكه أن يبحث عن شيخ مربٍ يلتزمه حتى يشرف على تربيته، ويوجهه إلى الطريق المستقيم، وهذا لابد منه لكل سالك أي طريق في هذه الحياة، فمن أراد أن يكون نجاراً لابد أن يكون له معلم، وكذلك مَنْ أراد أن يكون حداداً أو طالباً أي صنعة أخرى فلابد أن يكون له معلم وكذلك من أراد أن يتعلم أي علم فلابدّ أن يكون له معلم، فمن أراد أن يتقن علم الطب أو الهندسة أو غير ذلك فلابدّ من معلم وأستاذ يتقن هذا العلم أو ذاك، وكل مطلب في هذه الحياة لابد لمن أراد أن يسلك مسلكه ممن يدله على الطريق ويرشده إلى الصواب، وهذا أمر بديهي، فكيف بمن أراد أن يسلك طريق الله ﷻ طريق الصلاح والفلاح، طريق الحياة والنجاح، وهو أعظم طريق وأشرفه، فلابد لسالكه من مرشد ومربٍ وعارف بالله يدله على الطريق، ويساعده على سلوكه، يشير سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

هذه الآية تشير إلى أن الإيمان لابد له ممن يدعو إليه حتى يؤمن الناس، أي لابد من مربٍ ومرشد ومعلم يوضح للناس الطريق نحو الإيمان بالله ويعلمهم كل ما يتعلق بهذا الطريق حتى يبلغوا حقيقة هذا الطريق علماً وفهماً وتطبيقاً وسلوكاً.

- ولهذا اختار الله ﷻ النبي محمداً ﷺ ليكون نبي هذه الأمة فوجهه وعلمه وأدبه بواسطة الوحي عن طريق جبريل.

- ولقد كان النبي ﷺ المرشد والمربي والموجه للصحابة الكرام.

- وكذلك كان كل صحابي أستاذاً ومربياً للتابعين، وكان التابعون أساتذة لمن تبعهم وهكذا انتقلت العلوم إلينا بفضل العلماء، الذين حملوه إلينا، قال رسول الله ﷺ:

«وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». (أخرجه أبو داود في سننه عن أبي الدرداء ﷺ)

- وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فقد قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فدلت هذه الآية على أن قضية المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورية لزومية طبعاً وشرعاً، ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين وهادين ومعلمين ومرشدين، ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

- فكان النبي ﷺ المربي الأول للمؤمنين كلفه الله ﷻ بهذه المهمة فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. [آل عمران: ١٦٤]

- وعندما ذكر الله أنماطاً من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى، قال لرسوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

- من هنا نرى أن اتخاذ الشيخ العالم المربي واجب لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب وهو ثابتٌ كما رأيت عقلاً وطبعاً وشرعاً مؤيّدٌ بالواقع العلمي والعملي والتاريخي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أهمية القدوة والمرشد بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]

- وقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

- إن المناهج التربوية جميعاً، وفي كل مجالات التربية والتعليم تحتم وجود معلم ومتعلم فكيف بمن أراد أن يسلك طريق معرفة الله تعالى والوصول إليه، وهو غاية وجود الإنسان في هذه الدنيا التي حدّدها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال مجاهد ﷺ: إلا ليعرفوني. (تفسير القرطبي).

- ومعرفة أي شيء لابد لها من معرِّف، فكيف بمعرفة الله ﷻ.

- قال الشيخ أبو حامد الغزالي: (يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سَلك سُلك البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به) (إحياء علوم الدين، الغزالي).

- وقال أيضاً مؤكداً على اتباع المرشد: (فما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومربٍ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويكبر، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لابد للسالك من مرشد ألبتة لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا أدلاء لهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد ألبتة).

(خلاصة التصانيف في التصوف، أبو حامد الغزالي ص١٨)

- وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري: (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالكاً للطريق، تاركاً لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينتهِ عما نهى عنه وزجر).

(مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح، تاج الدين بن عطاء الله السكندري ص٣٠)

- فلابد إذا للمسلم الذي يريد أن يسلك طريق التصوف، طريق معرفة الله ﷻ من أن يبحث عن هذا العالم الذي من أهم شروطه أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله وبعلوم الشريعة وآدابها، وعلوم السلوك ومدارجه، وينبغي أن يكون موصوفاً بصفات أهل العلم الصادقين والمُخلِصين والمخلَصين، والأتقياء الورعين، والأولياء المقربين.

- وقد تحدث الشيخ الأكبر بن عربي قدس الله سره عن هؤلاء المربين فقال:

(الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام بزمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير أنهم لا يشرعون فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وليس لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب، ومراعاة الآداب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب).

والشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، راعون حدود الله تعالى، ويوفون بعهد الله ﷻ، قائمون بمراسم الشريعة لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، ويوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن الطريق، طريق الله وطريق الناس، يؤدون حقوق الناس يبرون عباد الله، هينون لينون، رحماء بين خلق الله). (حقيقة الصوفية، أبو سعيد التونسي ص٢٩)

- وقد يسأل سائل كيف الوصول إلى هذا العارف بالله والهادي إليه؟ وكيف الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته؟ وما هي شروطه وأوصافه؟

- إن أفضل من أجاب على هذا السؤال فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله فقال: (عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٦٨)

حين يشعر الطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب، عليه أن يصدق العزم، ويصحح النية، ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر، يناديه في جوف الليل، ويدعوه في سجوده وأعقاب صلاته: اللهم دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني إليك.

- وعليه أن يبحث في بلده، ويفتش ويسأل عن المرشد بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربي في هذا الزمان.

- فإذا لم يجد أحداً في مدينته فليبحث عنه في مدن أخرى، ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية للتداوي إذا لم يجد الطبيب المختص، أو حين يعجز أطباء مدينته عن تشخيص دائه، ومعرفة دوائه.

- ومداواة الأرواح تحتاج إلى أطباء أمهر من أطباء الأجسام.

وللمرشد شروط لابد منها حتى يتأهل لإرشاد الناس وهي أربعة:

١- أن يكون عالماً بالفرائض العينية ملتزماً بها الالتزام التام ومستقيماً عليها.

٢- أن يكون عارفاً بالله تعالى.

٣- أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس، ووسائل تربيتها.

٤- أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه.

١- أما الشرط الأول فينبغي أن يكون المرشد عالماً بالفرائض العينية: كأحكام الصلاة والصوم والزكاة، وأحكام المعاملات والبيوع...الخ، وأن يكون عالماً

بعقيدة أهل السنة والجماعة بالتوحيد مطبقا لمحتواها كامل التطبيق وملتزماً بهـا التزاماً تاماً، ومستقيماً عليها استقامةً ظاهرةً واضحةً دائمة.

٢- **وأما الشرط الثاني فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة عملاً وذوقاً بعد أن عرفها علماً ودراية**، فيشهد في قلبه وروحه صحتها، ويشهد أن الله تعالى واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، ويتعرف على أسماء الله تعالى ذوقاً وشهوداً.

٣- **وأما الشرط الثالث فلابد أن يكون قد زكى نفسه على يد مربٍ ومرشد** فخبَرَ مراتب النفس وأمراضها ووساوسها، وعرف أساليب الشيطان ومداخله وآفات كل مرحلة من مراحل السير، وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه.

٤- **وأما الشرط الرابع فلابد للمرشد أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير**، فمن لم يشهد له الاختصاصيون بعلم يدعيه، لا يحق له أن يتصدر فيه.

- قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ).

(أخرجه مسلم)

- وقد أوصى رسول الله ﷺ ابن عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: «يا ابن عمر لا يغرنَّك ما سبق لأبويك من قبلي فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا». (أخرجه ابن عدي)

- ثم اعلم أن من علامات المرشد أموراً يمكن ملاحظتها:

• **منها**: أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية، ونشوة روحية، لا يتكلم إلا بالله، ولا ينطق إلا بخير، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة، تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه، تنتفع من قربه كما تنتفع من بعده، تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه.

• **ومنها:** أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص، والتقوى والتواضع، وتتذكر وأنت تخالطهم المثل العليا من الحب، والصدق والإيثار، والأخوّة الخالصة، وهكذا يعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده، حيث ترى المرضى الذين شفوا بإذن الله على يديه، وتخرجوا من مصحه بأوفر قوة، وأتم عافية.

علماً أن كثرة المريدين والتلاميذ وقلتهم ليس مقياساً وحيداً، وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين وتقواهم، وتخلصهم من العيوب والأمراض واستقامتهم على شرع الله تعالى.

• **ومنها:** أنك ترى تلامذته يمثلون مختلف طبقات الأمة، وهكذا كان أصحاب رسول الله فالظفر به يدفع الطالب للتمسك به، والتزام مجالسه، والتأدب معه، والعمل بنصحه وإرشاده في سبيل الفوز بسعادة الدارين).

(حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص٦٨)

- وفي هذا الموضوع للنبي ﷺ توجيه عظيم، فقد سئل النبي ﷺ فقيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللَّهَ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ».

(أخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما)

المطلب الثاني: مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين

- لابد لمن أراد أن يسلك طريق التصوف من الصحبة، والمقصود بالصحبة البحث عن الأصحاب الذين يسلكون هذا الطريق، ويسيرون مع المربي بصدق وإخلاص، ليصحبهم وينتفع بصحبتهم، فيتعلم منهم ما ينقصه من أمور الدين والدنيا، ويمارس معهم ما تعلمه، ويرى فيهم النموذج الحي لما يتعلمه، ينصحونه تارة، ويبادلونه عواطفه وحياته تارة أخرى، ويشاركونه في فرحه ومسراته، وفي آلامه وامتحاناته.

- وللصحبة أثر كبير في التربية والتزكية، لذلك أمر الله ﷻ المؤمنين بمصاحبة الصالحين.

- فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. [التوبة: ١١٩]

- بل أمر الله ﷻ أن يصبر المؤمن نفسه مع الأصحاب، وألا يبتعد عنهم أو يزهد فيهم، كما أمر سبحانه بالابتعاد عن أصحاب السوء: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]

- وبين الله ﷻ ما سيؤول إليه الأمر يوم القيامة لمن ابتعد عن صحبة الصالحين، وصاحب أهل السوء، فقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

- وتحدث سبحانه عن نتائج الصحبة يوم القيامة فقال: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

كما لفت النبي ﷺ الأنظار إلى أثر الصاحب على صاحبه منبهاً إلى أهمية البحث عن الصاحب التقي فقد روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ». (أخرجه أبو داود والترمذي)

- وقد حذر النبي ﷺ من قرناء السوء فقال: «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف». (أخرجه ابن عساكر عن أنس بن مالك)

- قال الإمام علي ﷺ يحث على مصاحبة التقي والابتعاد عن الدنيء:

(غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني جزء٤، ص٦٥)

وصاحب تقياً عالماً تنتفـع بـه فصحبة أهل الخير ترجى وتطلبُ
وإياك والفساق لا تـصحبنهم فصحبتهم تعدي وذاك مجـربُ

- وقال أيضاً كرم الله وجهه:

واحذر مُؤَاخاة الـدنيء فإنـه يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ
واختر صديقك واصطفيه تفاخرا إن القرين إلى المقـارن ينـسب

- وقال أيضاً كرم الله وجهه منبهاً من ضرر مصاحبة الجهال:

(العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ص١٩٧)

فـلا تـصحب أخـا الجهـلِ وإيـــاك وإيـــاهُ
فكـم مـن جاهـل أردى حليمـاً حـين آخـاهُ
يقـاس المـرء بـالمرءِ إذا مـا المـرء ماشـاهُ
وللـشيء مـن الـشيء مقـاييس وأشـباه
وللقلـب علـى القلـب دليـلٌ حـين يلقـاه

- وقال عدي بن زيد متحدثاً عن طريقة انتقاء الأصحاب:

(أدب الدنيا الدين، الماوردي ص٢٠٦)

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قـرين بالمقـارن يقتـدي
فإن كان ذا شر فجانبه سـرعة وإن كان ذا خير فقاربه تقتـدي

- كما ميز النبي ﷺ ين الجليس الصالح والجليس السوء وأثر كل منهما فقال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً». (مسلم في صحيحه عن أبي موسى ﷺ)

- وينبغي لسالك طريق الصوفية أن يحب أصحابه السالكين لهذا الطريق ففي محبتهم يجد حلاوة الإيمان، وقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». (أخرجه البخاري)

- كما ينبغي لهذا المسلم أن يستقيم على صحبتهم وتفقد أحوالهم وزيارتهم وكل ذلك مدعاة لمحبة الله له، فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ: لاَ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ».

(أخرجه مسلم)

- وعنه ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً». (أخرجه الترمذي)

- هذا وإن أثر الصحبة الصالحة لا ينتهي في الدنيا وإنما يمتد إلى الآخرة فالمتصاحبون في الله ﷻ في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

- فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وذكر منهم «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ».

(أخرجه البخاري)

- وعنه أيضاً قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي». (أخرجه مسلم)

- وقد بين النبي ﷺ مكانة الصحبة الصادقة في الله ﷻ وهي مكانة يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء يوم القيامة، فقد روى عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ

قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَ اللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

(أخرجه أبو داود في سننه)

- من كل ما مر معنا سابقاً نجد أنه لابد للمسلم الذي أراد أن يسلك طريق التصوف، طريق أهل الله ﷻ، من أن يبحث عن هؤلاء الأصحاب ويصاحبهم ويسير معهم في هذا الطريق، ليكونوا له عوناً على سلوكه بصدق وإخلاص واستقامة.

المطلب الثالث: أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها

- التقرب إلى الله بأداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها هي من أهم واجبات السالك لطريق التصوف، طريق التزكية والإحسان، وذلك تحقيقاً لما روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ». (أخرجه البخاري)

- في هذا الحديث عدة إشارات منها أن العبد إذا أدى الفرائض والنوافل بكمالها وتمامها أصبح موالياً لله وأصبح الله ولياً له يدافع عنه فإن عاداه أحد حاربه الله ومن حاربه الله قصمه.

- ومنها أن التقرب إلى الله ﷻ يكون على مقامين وكل مقام له منازل متفاوتة، ودرجات متعددة، فهناك مقام قرب الفرائض وهو المطلوب أولاً وهذا

القرب أحب شيء إلى الله ﷻ وذلك بأن يؤدي العبد جميع فرائض الله تعالى عليه وما أوجبه عليه كاملة من غير نقصٍ، ويدخل في ذلك ترك جميع المحرمات.

- وهناك مقام قرب النوافل التي تؤدي إلى حب الله لمن أداها فإذا أحبه الله ﷻ ألهمه الله ألا يسمع ولا يبصر إلا ما يحبه الله ولا يستعمل يده ولا رجله إلا في طاعة الله عند ذلك ينال الإجابة عند سؤال الله ودعائه وإن استعاذ الله مما يكره أعاذه وإن أراد شيئاً حقق طلبه وأمله.

- والفرائض كثيرةٌ ليست فقط الفرائض الخمس التي ذُكرت في حديث النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

(أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما)

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها وهي متعينة الأداء على كل مُكلف ويجب عند أدائها أن تؤدى بكمالها وأركانها وواجباتها وبخشوعها وما يرتبط بها من أمور متعددة كي يكون أداؤها كاملاً كما يحب الله ويرضى لذلك يجب تعلم فقهها بشكل كامل صحيح وأداؤها بشكل كامل تام، كما يجب الوصول بها إلى الغايات التي تتحقق بأدائها.

- وأول أركان الإسلام الشهادتان: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) فالنطق بالشهادتين هو أول واجب على كل مسلم مكلف، وهذه الكلمة هي عنوان الإسلام المجيد، وهي بعينها نور الإيمان وآية التوحيد، ويجب أداؤها بإخلاصها، فقد روى زيد بن أرقم قال، قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» قيل: وما إخلاصها قال: «أن تحجزه عن محارم الله ﷻ».

(أخرجه الطبراني في الأوسط عن زيد بن الأرقم ﷺ)

- وقال رسول الله ﷺ: «وقول لا إله إلا الله لا يترك ذنبا، ولا يشبهها عمل.

(أخرجه الطبراني في الأوسط عن زيد بن الأرقم ﷺ)

- لذلك أمرنا النبي ﷺ أن نجدد إيماننا بالإكثار من ذكرها، فقال ﷺ: «جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ». (أخرجه أحمد عن أبي هريرة ﷺ)

- ولا يدخل الجنة إلا من ملك المفتاح وقد بين النبي ﷺ حقيقة هذا المفتاح فقال: «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ». (أخرجه أحمد عن معاذ ﷺ)

- وقيل لوهب بن منبه (يعد في التابعين، كثير الأخبار عن الكتب القديمة): (أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان "أي وأسنان هذا المفتاح فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى الله عنه" فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك). (جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي)

والركن الثاني للإسلام هي فريضة الصلاة التي يجب أن تؤدى بأركانها وشروطها ويجب المحافظة عليها في أوقاتها وخاصة مع الجماعة وألا تُؤخر أو تُهمل وأن تحقق قول الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

- وأن تحقق أيضاً قول النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلا بُعْداً». (أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- وقوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال الله تعالى ليس كل مُصَلٍّ يصلي إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكفَّ شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً والظلمة نوراً يدعوني فألبيه ويسألني فأعطيه ويقسم عليَّ فأبره أكلؤه بقوتي وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها).

(أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب ﷺ في جامع الأحاديث)

- وكذلك القول في الصوم يجب أن يؤدى بما وجه إليه القرآن والسنة بكماله وتمامه ومقصده وغايته ليحصل المطلوب والفائدة المرجوة منه يبين ذلك قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأهم غاية مرجوة من الصيام أن يصل الإنسان إلى كمال التقوى.

- كذلك يبين النبي ﷺ ذلك في قوله: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ». (أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ)

- وقول النبي ﷺ: «لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الأَكْلِ وَالشَّرْبِ فَقَطْ. إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ. فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ».

(أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ)

وقوله ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ». (أخرجه أحمد وابن خزيمة عن أبي هريرة ﷺ)

- وعَنْ عُبَيْدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا وَأَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَا هُنَا امْرَأَتَيْنِ قَدْ صَامَتَا وَإِنَّهُمَا قَدْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا مِنَ الْعَطَشِ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَوْ سَكَتَ ثُمَّ عَادَ وَأُرَاهُ قَالَ بِالْهَاجِرَةِ قَالَ يَا نَبِيَ اللَّهِ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ قَدْ مَاتَتَا أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا. قَالَ «ادْعُهُمَا». قَالَ: فَجَاءَتَا قَالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ أَوْ عُسٍّ فَقَالَ: لِإِحْدَاهُمَا «قِيئِي». فَقَاءَتْ قَيْحاً أَوْ دَماً وَصَدِيداً وَلَحْماً حَتَّى قَاءَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ ثُمَّ قَالَ لِلأُخْرَى: «قِيئِي». فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلأَتِ الْقَدَحَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمَا جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَى فَجَعَلَتَا تَأْكُلاَنِ من لُحُومِ النَّاسِ».

(أخرجه أحمد والبيهقي)

- وكذلك القول في فريضة الزكاة وأدائها في وقتها وتمامها وكمالها مبتعداً عن الرياء وحب السمعة يؤدِّيها بلا منٍّ ولا أذى كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

- مع التقيد بكامل أركانها وآدابها ومستحباتها، وكذلك فريضة الحج يجب تحقيق أهدافها وأركانها وواجباتها وسننها ومستحباتها والتأدب بآدابها كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

- وكما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». (أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ)

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها، وهي متعينة الأداء على كل مكلف، ولكن هناك فروض وواجبات إسلامية غيرها يجب أداؤها من ذلك: أداء حقوق العباد المالية والثابتة في الذمة، أو التي دخلت عليك من طريق غير شرعي، والعدل في المبادلات المالية والمعاملات دون ظلم، ولا بخس حق، ولا غش ولا تطفيف كيل، ولا نقص وزن، ولا تدليس عيب، ولا قول كذب، ولا خيانة أمانة، ولا اختلاف في وعد، ولا نقض في عهد، ولا رجوع عن عقد بعد إبرامه دون خيار.

- ومن الواجبات إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وصلة الرحم، ورد السلام، وحسن اللقاء، ومعاملة الناس بخلق حسن، والنصيحة لعباد الله تعالى، وحب الخير لهم كما تحب لنفسك.

- ومن الواجبات: حسن القيام بالحقوق الزوجية الواجبة على الزوجين، والملاطفة في المعاشرة الزوجية، وحسن الجوار، والبعد عما يؤذيهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: بر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الصلة بالآخرين، والوفاء معهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: تحسين الظن بالمسلمين، ما لم يشاهد فيهم غير ذلك، والستر على العصاة المستترين، والنصح لهم مع الدعاء لهم بالعافية من ذنوبهم.

- ومن الحقوق الواجبة على الإنسان حقوق الحيوان والرفق به فلا يجيعه ولا يوجعه، ولا يتعبه ولا يزعجه، ولا يحمله فوق طاقته، ولا يؤذيه بنفسه، ولا في أولاده، سواء في ذلك البهائم والطيور وغيرها.

- ومن الفروض الإسلامية: إبعاد النفس عن المحرمات وهي كثيرة فمنها: الربا والزنى، والخمر والميسر، والغضب والظلم، وشهادة الزور واليمين الغموس وقول الزور، وانتهاك الأعراض بالقذف ونحوه، والسباب والتعيير وكالتفسيق والتبديع والتكفير من غير دليل قطعي ثابت شرعاً، وتتبع عورات الناس وزلاتهم وأخطائهم وهفواتهم.

وكالسبّ والشتم واللعن، وكشف ستر المسلم، والغيبة والنميمة، وسوء الظن والسخرية بعباد الله تعالى، واحتقارهم والتكبر والعجب، والرياء والسمعة، والغرور وحب الظهور، والمفاخرة أو المكاثرة بالأولاد والأموال.

- كل ذلك من مقام قرب الفرائض أما مقام قرب النوافل فيجب أن نعلم أن النوافل هي الزيادة على الفرائض والواجبات، ولا تتحقق النافلة، وتعدّ زيادة على الفرائض والواجبات إلا إذا كملت للعبد فرائضه وواجباته كماً وكيفاً، فتصير الزيادة على ذلك نافلة.

- والنوافل تكمل نقص الفرائض، فقد روى أبو هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ

فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِه شَيْءٌ قَالَ انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِه عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ».

(أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما)

- والنوافل هي العبادات والطاعات زيادة على الفرائض وهي أنواع متعددة:

أولاً - نوافل عملية: كأداء نوافل الصلاة المختلفة، مثل السنن الراتبة، وصلاة الضحى وقيام الليل والتهجد، وصلاة التسابيح وصلاة الحاجة، وصلاة التوبة وصلاة الاستخارة، والوتر، وسجدة التلاوة وسجدة الشكر.

- وصوم النفل كصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

- فعن أبي ذر ﷺ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ نَصُومَ مِنْ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ الْبِيضَ ثَلاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ. (أخرجه النسائي وابن حبان)

- وصيام ستة أيام من شوال، عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ». (أخرجه مسلم)

- وصوم عشر ذي الحجة، ويتأكدّ صيام يوم عرفة لغير الحاج.

- وكذلك الحج والعمرة النافلة.

- هذا ويجب أن نعلم أن أهم هذه النوافل قيام الليل فقد قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ». (أخرجه الترمذي وغيره عن أبي أمامة ﷺ)

- وقال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي مناد فيقول: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب».

(أخرجه البيهقي عن أسماء بن زيد)

- وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

- وقوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾.
[الذاريات: ١٧-١٨]

- فمن صلى في جوف الليل، فقد تقرب إلى الله تعالى، في الوقت الذي يتقرب الله تعالى إلى عباده قرباً خاصاً.

- قال رسول الله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ».
(أخرجه الترمذي وغيره عن عمرو بن عبسة)

- وعن عبد الله بن أبي قيس ﷺ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (لاَ تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لاَ يَدَعُهُ وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِداً).
(أخرجه أبو داود وأحمد وابن خزيمة وغيرهم)

لهذا يجب على المؤمن أن يحافظ على قيام الليل كل ليلة ولو بصلاة ركعتين قبل النوم، ويقوم للتهجد ولو بصلاة ركعتين قبل الفجر، وأن يجعل ذلك ديدنه وورده اليومي، فإن نام عنه قضاه بعد الفجر، فقد روى عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ». (أخرجه مسلم)

- وفي هذا الحديث إشارة تظهر ضرورة أن يضع المسلم لنفسه منهجاً في كل شيء، وخاصة في النوافل، فإذا حصل له ما يمنعه من أدائها لأي سبب ألزم نفسه قضاءها ولو بعد حين حتى لا يعود نفسه تركها وإهمالها.

- هذا وإن المسلم يثاب على نيته إن غلبته عينه، فنام ولم يقم بالعمل، فقد روى أبو الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ».

(أخرجه النسائي وابن ماجه وغيرهما)

ثانياً - نوافل قولية: وأبوابها كثيرة وواسعة منها: المواظبة على تلاوة كتاب الله تعالى، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، والإكثار من التهليل والتسبيح، والتحميد والتكبير، وجميع أنواع ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومحامده ودعائه.

ثالثاً - نوافل مالية: ومؤدُّوها هم المحسنون الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

- فمساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين وخاصة الأقرباء وإعطاؤهم من مال غير الزكاة تطوعاً هو من أهم النوافل، وقد بين النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ ودله على أبوب الخير فقال له: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ». (أخرجه الترمذي)

- وقال ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ». (أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ﷺ)

المطلب الرابع: الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال والصلاة على النبي ﷺ.

- هذا ولابد لمن أراد سلوك طريق التصوف من الإكثار من ذكر الله ﷻ والصلاة على النبي ﷺ في كل أحواله.

أ - ذكر الله ﷻ: فذكر الله ﷻ يعمق معرفة العبد بربه والصلة به، ومحبته والشعور بمعيته ومناجاته ومراقبته، فيمنحه ذلك قوة الثبات، وقوة اليقين، وقوة الإيمان، وقوة الاستقامة.

- والمقصود بالذكر أن يتذكر المسلم ربه دائماً في كل أحواله وتصرفاته فيذكره بالرضا والطمأنينة والحمد والشكر والخشوع والإنابة والتوبة والتوجه والسؤال والمناجاة والدعاء.

- فلا يغيب قلبه وفكره في أوقاته وأعماله كلها عن الله ﷻ، وهذا الذكر هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١]

- ويجب أن يذكر المسلم ربه كثيراً كما أمره في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١].

- وينبغي للمؤمن ألا يشغله شاغل عن ذكر الله وأن لا يلتهي بشيء عنه، عملاً بقول الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

- وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٧]

- ومن أهم ثمار الذكر الحقيقي طمأنينة القلب وخشوعه ووجله قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

- وللحفاظ على إيماننا بربنا وحبنا وطاعتنا له أمرنا سبحانه وتعالى بأن نبتعد عن طاعة الغافلين عن ذكره وعن مجالستهم، فقال سبحانه:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

- ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من الإعراض عن ذكره مبيناً أن الإعراض عنه والغفلة عن ذكره يجعل حياة الإنسان صعبة ضيقة ممتلئة بالمتاعب والمكاره والأحزان، ويورث قسوة القلب، فقال سبحانه وتعالى مشيراً إلى ذلك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

- والله ﷻ ينبهنا إلى ضرورة ذكره الذكر الكثير لنكون من المؤمنين الصادقين، ونبتعد عن صفات المنافقين التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

- ولئن تحدث القرآن كثيراً عن الذكر فإن رسول الله ﷺ لم يغفل الحديث عنه بل أشاد به، وأكثر من الحديث عنه، ومما قاله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ». (أخرجه البخاري عن أبي موسى ﷺ)

- وقوله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا». قَالَ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ». (أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ)

- وقال ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ». قَالُوا بَلَى. قَالَ «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى».

(أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ)

وقد يقول قائل كيف أذكر الله الذكر الكثير؟

- فأقول له: اذكر الله كما أمرك في قرآنه، واذكره كما علمك النبي ﷺ، فقد بين الله ﷻ في قرآنه، والنبي ﷺ في سنته أن الذكر له أنواع متعددة منها:

➢ أولاً - القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩].

- وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

- وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

- فقارئ القرآن ذاكرٌ ومن يحفظ آية من آياته فيرددها فهو ذاكر، ومن يستمع إلى القرآن، ويفكر في معانيه فهو ذاكر، ومن يعمل بأوامر القرآن وينتهي عن نواهيه فهو ذاكر.

- بل إن القرآن الكريم هو أعظم الذكر، لأن قراءته تلاوة لكلام الله ﷻ الذي فيه الشفاء من كل داء، ففيه آيات بينات من لدن حكيم عليم، تدخل القلب، وتطمئن لها النفس، وتقشعر لها الأبدان، ويزداد بها القارئ إيماناً، ويسرع إلى تطبيقها، وتنفيذ أوامرها، والبعد عن نواهيها، فتتهذب بها نفسه، ويطمئن قلبه، وتسمو روحه، فيصبح وكأنه ملك يمشي على وجه الأرض.

➢ ثانياً - أداء الفرائض:

أداء الفرائض ذكر لله ﷻ، فالصلاة مثلاً فيها ركوع وسجود، وقراءة للقرآن وتسبيح وتهليل، وكل ذلك ذكر لله ﷻ، لأن الغاية من العبادات ذكر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤].

- وكذلك الصوم والزكاة والحج كلها ذكر لله ﷻ.

➢ **ثالثاً - العلم:**

مجالسة العلماء، وطلب العلم، وقراءته ومدارسته وتدريسه، وحفظه وتحفيظه، والغدوّ والرّواح في طلبه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، قال تعالى:

﴿ رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وأهل الذكر هنا: أهل العلم.

➢ **رابعاً - ذكر الله ﷻ بجميع أشكاله:**

كذكر أسمائه وصفاته، أو تسبيحه وتحميده، وتمجيده وتكبيره، وتهليله واستغفاره ودعائه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، وذكر الله هذا على نوعين:

١- **ذكر الله الخاص بالأعمال والأوقات والمناسبات:** وذلك بأذكار وأدعية وجهنا إليها رسول الله ﷺ في سيرته وأحاديثه كدعاء الاستيقاظ أو دعاء دخول بيت الخلاء، أو دعاء الطعام أو الشراب، أو غير ذلك.

٢- **ذكر الله العام وتسبيحه:** في كل الأوقات والأحوال، وخاصة عقب الصلاة، وفي الصباح والمساء، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وهذا الذكر على ثلاثة أنواع:

ذكر اللسان: الذي كان يرشد إليه الرسول ﷺ في كثير من أحاديثه:

«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً بِذِكْرِ اللَّهِ». (أخرجه أحمد والبيهقي عن عبد الله بن بُسر ﷺ)

أ- ذكر القلب: الذي وجه الله إليه في قوله سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾.

[الأعراف: ٢٠٥]

وفيه قال ﷺ: «خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ». (أخرجه أحمد عن سعد بن مالك ﷺ)

وقال ﷺ: «اذكروا اللهَ ذكراً خاملاً قيل وما الذكرُ الخاملُ قال الذكرُ الخَفيُّ».

(أخرجه ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب مرسلاً)

وقال ﷺ: مشيراً لأهمية الذكر الخفي: «الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً». (أخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها)

ب- الذكر العملي: وهو أن يذكر المسلم ربه في جميع أحواله وأعماله، وأن يراقبه في كل حركاته وسكناته، ولا يغفل عنه أبداً، وقد عبر العارفون عن هذا الذكر بقولهم: نعيش مع الناس بأجسامنا في هذه الحياة في معاملتنا لهم واختلاطنا بهم وبيعنا وشرائنا، لكن قلوبنا في كل ذلك مع الله ﷻ لا نغفل عن ذكره وتذكره أبداً.

وللذكر فوائد كثيرة حاول الإمام ابن القيم في كتابه الوابل من الكلم الطيب استيفاءَها فتجاوزت عنده المئة أذكر منها:

(يرضي الرحمن، ويطرد الشيطان، ويزيل الهم، ويجلب السرور، ويقوي القلب والبدن، وينور القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة، ويورث محبة الله تعالى التي هي روح الإسلام، ويورث المعرفة والإنابة والقرب وحياة القلب، وذكر الله للعبد.

وهو قوت القلب وروحه ويجلو صدأه، ويحط الخطايا، ويرفع الدرجات، ويحدث الأنس، ويزيل الوحش، ويذكر بصاحبه، وينجي من عذاب الله، ويوجب تنزل السكينة، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر، ويشغل عن الكلام الضار، ويسعد الذاكر، ويسعد به جليسه، ويؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، وهو مع البكاء سبب إظلال الله للذاكر، وبه تحصل العطايا والثواب المتنوع من الله تعالى.

وهو يثمر المعارف والأحوال الجليلة، والذاكر قريب من مذكوره والله معه وأكرم الخلق على الله: من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله.

وهو يعين على طاعة الله ويسهل كل صعب، وييسر الأمور، ويعطي الـذاكر قوة في قلبه وبدنه، وهو سد بين العبد ونار جهنم، وتستغفر الملائكة للذاكر، وتتباهى الجبال وبقاع الأرض بمن يذكر الله عليها، وتشهد له، والذكر أمان من النفاق...).

ب - الصلاة على النبي ﷺ:

- ويرتبط بذكر الله ﷻ الصلاة على النبي ﷺ، حيث ينبغي للمسلم أن يعلم أن من أساليب كلام الله ﷻ في قرآنه، أنه إذا أراد أمراً أو نهياً أو تنبيهاً أو موعظة للمؤمنين يستعمل أسلوب النداء للمؤمنين مباشرة فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ومن واجب المؤمن عند سماع مثل هذا النداء أن يقول مباشرة: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، عبدك بين يديك مستعدٌ لتنفيذ أوامرك، واجتناب نواهيك، والعمل بما يرضيك.

- لكن في القرآن الكريم آية واحدة تأتي بتصدير مهم قبل النداء يوضح ويبين ويظهر أهمية ما سيأتي بعد النداء، ثم يأتي بعد ذلك نداء المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

- والصلاة في اللغة تعني الدعاء، وفي اصطلاح هذه الآية: الثناء على النبي ﷺ وتمجيده وتعظيمه.

- والمقصود من هذه الآية أن يخبر الله سبحانه وتعالى عباده بمنزلة ومكانة عبده ونبيه المصطفى ﷺ عنده وفي الملأ الأعلى، وأظهر ذلك بصلاته عليه، وصلاة الله تعني ثناءه عليه، وإظهار عظمته ومكانته عنده، يخبر بذلك عباده عن هذه المنزلة الرفيعة التي لم يبلغها أحد سواه.

- كذلك بين سبحانه أن الملائكة تصلي عليه أيضاً وذلك بدعائها للنبي ﷺ واستغفارها له، وأن يزيده الله رفعة ومكانة وشرفاً وقربة.

- ثم جاء الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما، وصلاة المؤمنين على النبي ﷺ دعاء له بإعلاء ذكره وإظهار دينه، وإبقاء شريعته في الدنيا، وإجزال مثوبته، ورفع مقامه وتشفيعه بأمته في الآخرة.

- قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (ليست الصلاة على رسول الله ﷺ شفاعة منا له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله سبحانه أمرنا بمكافئة من مكافآته أنعم علينا، وأحسن إلينا فإن عجزنا عن مكافأة دعونا له بأن يكافئه الله عنَّا، ولما عجزنا عن مكافئة سيد الأولين والآخرين أمرنا رب العالمين أن نرغب إليه، وأن نصلي عليه لتكون صلاتنا عليه مكافئة لإحسانه إلينا وإفضاله علينا).

(فتح الباري، ابن حجر جزء ١١، ص١٦٨)

- هذا وإن الله ﷻ لما أمرنا بالصلاة على النبي ﷺ ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلنا الأمر على الله تعالى وقلنا: اللهم صلِّ أنت على سيدنا محمد، لأنك أعلم بما يليق به فنحن عاجزون عن توفيته حقه وقاصرون عن معرفة الثناء الذي يليق بقدره.

- جاء في تفسير الآلوسي: إن هذه الآية، آية الصلاة على النبي ﷺ تفيد الدوام والاستمرار نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية، وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث إنها جملة فعلية، فيكون مفادها استمرار صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ وتجددها وقتاً فوقتاً دون نفادٍ ولا انقطاع.

- من تواضع النبي ﷺ أنه عندما علمنا كيفية الصلاة عليه بقوله: ((اللهم صلِّ على محمد)) لم يُسَوِّدْ نفسَهُ فإن من حقِّه علينا أن نقول احتراماً له وتقديراً لذكره ما علمنا إياه السادة العلماء الأفاضل مما استنبطوه من القرآن والسنة: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، فهو ﷺ سيدنا في الدنيا، وسيدنا في الآخرة، ومن أهم تلك الأدلة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

[النور: ٦٣]

- ومن الأدلة من السنة، قوله ﷺ وهو يتحدث عن جملة المراتب الخاصة به:
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». (أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- فالصلاة على النبي ﷺ واجبة لا يجوز تركها، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه من الناس.

قال القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى: (اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء الأمر على الوجوب وأجمعوا عليه).

- وقال جمهور العلماء: إن الصلاة على النبي ﷺ قربة وعبادة كالذكر والتسبيح والتحميد، وهي مندوبة ومسنونة في كل وقت وحين، وإنه ينبغي الإكثار منها.

- فالصلاة على النبي ﷺ تفرض في آخر الصلاة في التشهد الأخير، قال ابن عمر ﷺ: (لا تكون صلاة إلا بقراءة تشهد وصلاة على النبي ﷺ).

- والصلاة على النبي ﷺ تجب عند ذكر النبي ﷺ على الذاكر والسامع، فقد روى أنس ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلْيُصَلِّ عَلَيَّ».
(أخرجه أبو يعلى في مسنده)

- وقد ورد الوعيد الشديد لمن لم يُصَلِّ عليه إذا ذكر ﷺ جاء ذلك في العديد من الأحاديث الصحيحة، من ذلك الوعيد الدعاء على تارك الصلاة عليه ﷺ بالإبعاد والذل ووصفه بالبخل والجفاء وأنه قد أخطأ طريق الجنة.

فقد قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ: آمِينَ». (أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما)

وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ».
(أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ)

أَيْ لَصِقَ أَنْفُهُ بِالتُّرَابِ كِنَايَةً عَنْ حُصُولِ الذُّلِّ.

- وقال ﷺ: «من ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ فقد شَقِيَ».

(أخرجه الطبراني في الأوسط)

وقال رسول الله ﷺ: «البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ».

(أخرجه الترمذي عن علي ﷺ.)

- قال العلامة الفاكهاني: (وهذا أقبح بخل وأشنع شح، لم يبقَ بعده إلا الشح بكلمة الشهادة).

(المناوي: فيض القدير، جزء٣، ص٢٨٣) أعاذنا الله تعالى وجميع المؤمنين من ذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَخَطِئَ الصَّلاةَ عَلَيَّ، خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ». (أخرجه الطبراني عن الحسين بن علي رضي الله عنهما)

- فما أحرانا بعد كل ما سمعناه وعرفناه، أن نكثر من الصلاة عليه في كل وقت وحين.

- (رؤي الشافعي ﷺ في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل له بماذا؟ قال: بخمس كلمات كنت أصلي بها على رسول الله ﷺ، فقيل له: وما هي تلك الكلمات. قال: كنت أقول:

(اللهم صلِّ على سيدنا محمد عدد من صلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد عدد من لم يصلِّ عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما أمرت أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما تحب أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما ينبغي أن يصلى عليه). (انظر الدر المنضود وعند البيهقي)

- من أحب شيئاً أكثر من ذكره ومن أحب النبي ﷺ أكثر من ذكره ومن الصلاة عليه.

- ويجب على كل مسلم محب لرسول الله ﷺ أن يعلم أن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً.

يقول الشيخ الفاسي في شرحه على "دلائل الخيرات": (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي ﷺ فإنها مقبولة غير مردودة).

ثم قال: (الصلاة على النبي ﷺ مجابة على القطع فإن اقترن بها السؤال شفعت بفضل الله تعالى فقبل السؤال، وهذا المعنى مذكور عن بعض السلف).

(مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات، الفاسي)

- مع أن صلاتنا على النبي ﷺ تعني تعبيراً عن حبنا وتقديرنا له بأنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة التي بفضله وصلت إلينا فعرفنا بربنا ومنّ الله به علينا بالإيمان والإسلام والإحسان.

وأن صلاتنا على النبي ﷺ تحمل دعاءً وثناءً على النبي ﷺ بأن يؤتيه الله الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة والمقام المحمود الذي وعده.

مع كل ذلك فإن صلاتنا عليه ﷺ ننال بها مكافأة عظيمة من الله عز وجل، فقد روى أبو طلحة الأنصاري فقال: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ. قَالَ: أَجَلْ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده)

- فأي شيء أعظم من أن يصلي الله على عبده فيخرجَهُ من الظلمات إلى النور، من ظلمات المعاصي وظلمات القسوة وظلمات الضيق والأمراض والأسقام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة بلغتني صلاته وصليت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات».

(أخرجه الطبراني في معجمه)

- فإذا صليت على النبي ﷺ بلغت صلاتك النبي ﷺ وقيل له فلان ابن فلان (باسمك الخاص) من أمتك يصلي عليك فيرد عليك النبي ﷺ ويقول: ((اللهم صلّ على فلان)).

فأي شرف وأي لذة، وأي عطاء في أن يصلي النبي ﷺ عليك باسمك في الحضرة الإلهية فتستفيد سكينة للقلب، ومغفرة للذنب، وارتقاء لمقام القرب، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

- وللصلاة على النبي ﷺ فوائد كثيرة صرَّحت بها أحاديث النبي ﷺ المتعددة فمن أهم تلك الفوائد صلاة الله وسلامه مع ملائكته على من صلى عليه.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْراً».

(أخرجه مسلم في صحيحه)

وفي رواية لأحمد: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلاَئِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلاَةً فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ».

- ويرحم الله تعالى القائل:

إذا أنت أكثرت الصلاة على الذي ... صلّى الله عليه في الآيات

وجعلتها ورداً عليك محتماً ... لاحت عليك دلائل الخيرات

- ومن تلك الفوائد التي ذكرها الأحاديث الشريفة تكفير الخطايا، وتزكية الأعمال، ورفع الدرجات، ومغفرة الذنوب، ومحو الخطايا، هذا وإنَّ بركة الصلاة على النبي ﷺ وخيراتها تدرك الرجل المصلي وولده، وولد ولده، ومنها أنها تزين المجالس وتنفي الفقر وضيق العيش، وتقرب إلى الله ورسوله، وهي سبب عظيم لقضاء الحاجات ونيل المرادات، تفتح أمام المصلي على النبي ﷺ أبواب الخير، فيلتمس ببركتها كل محبوب، وهي سبب عظيم في إجابة الدعاء، وهي نور لصاحبها في قبره، ويوم حشره، وعلى الصراط، ويكتب الله بين عينيه براءة من النار، وبراءة من النفاق، ويكون يوم القيامة مع الشهداء.

فهي من أكثر الأعمال بركةً وأفضلها نفعاً في الدنيا والآخرة، وكثرة صلاة المصلي على النبي ﷺ تدل على خالص حبه له ﷺ لأن الذي يحب شيئاً يكثر من ذكره.

- وإذا كان كل وقت يستحب فيه الصلاة على النبي ﷺ فإن هناك مواطن تشرع فيها الصلاة على النبي ﷺ فمنها:

- التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة فهي واجبة.

- عقب إجابة المؤذن. فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ».

(أخرجه مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص ﷺ)

- ومن المواطن التي يسن فيها الصلاة عليه ﷺ: عند دخول المسجد وعند الخروج منه، عن فاطمة رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ».

(أخرجه الترمذي)

- وفي صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية.

- ومن المواطن أيضاً: الصلاة عليه ﷺ عند الصباح وعند المساء. فقد قال النبي ﷺ: «من صلى عليَّ حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة». (أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء ﷺ)

- ومنها عند الاجتماع والتفرق: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً (حسرة وندامة) فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ». (أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ)

- وتسن الصلاة على النبي ﷺ عند كل كلام خيّر ذي بال، وعند افتتاح الخطب والدروس، وقراءة الأحاديث، وعقب الصلاة، وختم القرآن الكريم، وفي دعاء الحاجة، ويوم عرفة، وعند زيارته ﷺ، وعند نسيان الشيء، فيذكره إن شاء الله.

- وقد ورد الأمر بالإكثار من الصلاة على النبي يوم الجمعة وليلتها، قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ الْمَلاَئِكَةُ وَإِنَّ أَحَداً لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إِلاَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاَتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا. قَالَ قُلْتُ وَبَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ: وَبَعْدَ الْمَوْتِ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ. فَنَبِيُّ اللَّهِ حَيٌّ يُرْزَقُ». (أخرجه ابن ماجه عن أبي الدرداء ﷺ)

- كان الصحابة الكرام، والتابعون، وأولياء الله وأحبابه يكثرون من الصلاة على النبي محمد ﷺ بل كان بعضهم يقتصر في دعائه على الصلاة عليه ﷺ فلا يسأل الله شيئاً إلا الصلاة على النبي محمد ﷺ وما عليه إذا فعل ذلك وقد ضمن الله له بذلك أن يكفى هموم الدنيا والآخرة، وماذا يبتغي العبد من دعائه مهما كان جامعاً إلا هذا الطلب.

عن أبي بن كعب ﷺ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي [أي: فكم أجعل من دعائي صلاة عليك] فَقَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ قُلْتُ: الرُّبُعَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: النِّصْفَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا. قَالَ: «إِذاً تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ».

(أخرجه الترمذي)

- **أخيراً:** ينبغي للمسلم الذي سلك طريق التصوف، طريق التزكية والإحسان أن يجعل لنفسه ورداً خاصاً يومياً للصلاة على النبي ﷺ، وأن يكثر من هذه الصلاة، وأن يجلس في مجالسها، وأن يحب أهلها.

المطلب الخامس: السعي على سلامة القلب وصلاحه

- للقلب أهمية كبرى أظهرها القرآن الكريم في العديد من آياته، فقد ذكر القلب في القرآن الكريم عشرين مرة بالإفراد، واثنتي عشرة ومائة مرة بصيغة الجمع.

- والقلب لطيفة ربانية، لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلُّق، وقد جعل الله بصحته وبقائه وانتظام دورته حياة الجسد، وبسلامته وطهارته وصلاحه حياة الروح، قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ». (أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير ﷺ)

- والقلب موضع الإيمان والكفر، والإنابة والإصرار، والطمأنينة والاضطراب، وهو محل العلم والتقوى، والنية والإخلاص والذكرى، والحب والبغض، والوسواس والخطرات، فالقلب هو العالم بالله ﷻ، وهو المتقرب إلى الله ﷻ، وهو العامل لله ﷻ، وهو الساعي إلى الله ﷻ، وإنما الجوارح أتباع للقلب وخدم، كما قال أبو هريرة ﷺ: (القلب ملك وله جنود فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده). (أخرجه البيهقي وعبد الرزاق)

وقد جعل القرآن القلوب على ثلاثة أحوال:

١- **القلب الميت وهو قلب الكافر:** (وهو الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وبما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط). (طب القلوب، ابن قيم الجوزية ص٣٧)

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه، وهذا قلب الكافر الذي ختم الله على قلبه وأصبح الران في أعماقه، ذكره الله في قرآنه بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقوله ﷻ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المطففين: ١٤)

٢- **القلب المريض وهذا قلب المنافق:** (وهو القلب الذي له حياة وبه علة، ففيه من محبة الله، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو بالأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً).

(طب القلوب، ابن قيم الجوزية ص٣٨)

ويشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

٣- **القلب الصحيح وهو قلب المؤمن:** وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

قال سعيد بن المسيب (وهو سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة) رحمه الله تعالى: (القلب السليم: هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن) (تفسير ابن كثير)

(والقلب السليم: وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله، إرادة ومحبة، وتوكُّلاً وإنابة، وإخباتاً وخشية، وخلص عمله لله ﷻ، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله). (طب القلوب، ابن قيم الجوزية ص٣٥)

والقلب السليم: هو الذي سلم من جميع العقائد الفاسدة، والأخلاق الرذيلة، والميل إلى المعاصي والشهوات.

والقلب السليم: هو الذي سلم من الكفر والشقاق، ومن الشك والتردد، وسلم من الرياء والفخر والكبر، والحقد والحسد والغش، وجميع أمراض القلب، وسلم من الأهواء والشهوات والمغريات والمعاصي والآثام.

- والسؤال هو كيف نصل إلى هذا القلب بهذه المعاني؟

كيف يجعل المسلم قلبه قلباً صحيحاً سليماً صالحاً منيباً؟

الجواب: باتباع الأمور الأساسية التي تساعد على امتلاك هذا القلب:

➢ **أولاً**: السعي الحثيث إلى تعميق الإيمان بالله في القلب، والوصول به إلى حد اليقين بشتى الوسائل حتى لا يكون إيماننا ادعاءً، كالأعراب الذي قال عنهم سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

- قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

- ومن هداية الله لهذا القلب أن يحبب إليه الإيمان، ويزينه فيه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]

➢ **ثانياً**: المحافظة على هداية الله لهذا القلب، وتمكن الإيمان فيه، ووصوله إلى معرفته معرفة حقيقية، وثباته على ذلك، حتى يصل إلى انشراح صدره الذي يستوطن القلب فيه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

- عن أبي جعفر الهاشمي المدائني قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح. قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفوت). (تفسير الطبري)

- فإذا وصل المسلم إلى هداية الله له، وشرح صدره، قذف في قلبه نوراً، يصبح القلب بهذا النور ذاكراً لله ليناً سليماً، صحيحاً صالحاً منيباً، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

- وبذلك يصل ذلك المسلم إلى ما وصل إليه الصحابي الجليل حارثة من الإيمان الحق: فعَنِ الْحَارِث بن مَالك الأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّة يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: «يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ» ثَلاثاً. (أخرجه الطبراني في الكبير)

- كذلك فإن الله ﷻ يجعل لهذا العبد واعظاً من قلبه يأمره وينهاه كما بين ﷺ في قوله: «إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظاً من قلبه».

(أخرجه الديلمي عن أم سلمة رضي الله عنها)

➢ **ثالثاً**: الاستجابة لما يدعو إليه الله ورسوله، والتزام أوامر الله، والبعد عن نواهيه، والتقيد بأحكامه، والبعد عن معاصيه، وكل ذلك يؤدي إلى حياة قلب المسلم، واستمراريته على سلامته وصحته وصلاحه وإنابته، وكل ذلك أيضاً يساعد ألا يحول الله ﷻ بين المسلم وبين قلبه بتقلب أحوال القلب أو مرضه أو موته،

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

- هذا وقد تحدث النبي ﷺ عن تقلب هذا القلب، فقد روى أنس بن مالك ﷺ قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». (أخرجه الترمذي)

- وقال ﷺ: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها».

(أخرجه أحمد والحاكم عن المقداد بن الأسود ﷺ)

- وقال ﷺ: «مثل القلب مثل العصفور فيقلب كل ساعة».

(أخرجه الحاكم والبيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ)

- وقال ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ». (أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ)

- بالنظر إلى سرعة تغير القلب بهذا الشكل علينا الاستجابة لما يدعونا إليه الله ورسوله ففيه حياتنا، لنكون في حصن من ذلك التغير والتبدل السريع، ولنكون دائماً على حذر وانتباه، ولنكثر من قولنا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

➢ **رابعاً:** المحافظة على تلاوة القرآن الكريم، والتزام أحكامه والعمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه.

والانتفاع بالقرآن وما فيه إنما يحصل لمن كان حيَّ القلب، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

- كما أن الانتفاع بمواعظه شفاء لما في الصدور، فالقلب في الصدر كما نعلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

- أما الذي لا يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يعمل به، فإن قلبه مقفل مغلق، كما بين ذلك سبحانه في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

➢ **خامساً**: المحافظة على ذكر الله الذكر الكثير، كما أمر سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

- لأن ذكر الله هو الوسيلة التي تجعل القلب مطمئناً قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

- ولأن الذكر سبب خشوع القلب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

- ومن لا يذكر الله ﷻ، فإنه يصاب بقساوة في قلبه، تنتهي به إلى الخسران والضلال والضياع كما وضح ذلك سبحانه في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

- فلابد للقلب من ذكر الله والمداومة عليه لأن الذكر يصقل القلب وينوره، ويمسح عنه الغفلة، والران والحجب الكثيفة التي تغشاه قال رسول الله ﷺ:

«إن لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله».

(أخرجه البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما)

- وبما أن للذكر أنواعاً متعددة فعلينا أن نوليَ الذكرَ الخفي الذي يقوم به

القلب عناية خاصة، فهو خيرها، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ».

(أخرجه أحمد عن سعد بن مالك ﷺ)

➢ **سادساً:** صحبة المؤمنين الصادقين ومجالستهم، والبعد عن الغافلين، فإن في ذلك حياة القلب وسلامته، وقد أمر الله تعالى بهذه الصحبة فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

- وأمر الله ﷻ نبيه أن يحبس نفسه على صحبة المؤمنين الصادقين، ونهاه عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

- وملازمة المؤمنين الصادقين وصحبتهم، تدعو إلى محبتهم وتمني الخير لهم، والدعاء لهم، وعدم حسدهم أو بغضهم أو معاداتهم بين الله ﷻ كل ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

➢ **سابعاً:** البعد عن المعاصي والآثام والذنوب، والمغريات والشهوات والأهواء والمفسدات، فإنها تضعف الإيمان في القلب، وتكثر الحجب عليه، وتسوده، وتطفئ نوره، فيُختم ويُطبع، حتى يصل إلى الران الذي يميته والعياذ بالله، قال تعالى:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن،، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق).

(مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية جزء ١، ص٤٢٤)

- قال الإمام مالك لما رأى من الشافعي النبوغ والإيمان، قال له: (إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية).

(الجواب الكافي، ابن قيم الجوزية ص٥٢)

- وهناك آية تلخص كل ما جاء في هذه الفقرة من معانٍ في قوله ﷻ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

- وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ شارحاً هذا الموضوع: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله ﷻ ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

(أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ﷺ)

- قال الإمام ابن المبارك (حلية الأولياء، أبو نعيم جزء ٨، ص٢٧٩):

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

- وهناك أسباب أخرى للختم على القلوب والطبع عليها بينها النبي ﷺ، منها إهمال أداء الفرائض.

- فقال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ (أي عن تركها) أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ».

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر ﷺ)

- وقال ﷺ في حديث آخر: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُناً بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ». (أخرجه أبو داود والنسائي عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ ﷺ)

- وبالقياس فإن إهمال أداء الصلوات الخمس، وباقي العبادات والقربات من قراءة للقرآن، وذكر الله ﷻ، وحضور مجالس العلم والعلماء، ومجالسة الصالحين والأتقياء يؤدي إلى الختم على القلب والطبع عليه والعياذ بالله تعالى.

- كذلك يجب الابتعاد عن مفسدات القلب وأسباب مرضه، وهي كثيرة أذكر منها تعداداً فقط: كثرة الخلطة للناس وخاصة الفاسدة، والتمني، والتعلق بغير الله ﷻ، والشبع الكثير، وكثرة النوم، وفضول النظر، وفضول الكلام.

➢ ثامناً: إنكار الفتن والابتعاد عنها، وعدم المشاركة فيها، وهي كثيرة وتكون في كل زمان ومكان، ويعرفها كل إنسان، فيقف أمام مفترقين، فأيهما يختار؟

روى حذيفة بن اليمان ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا (الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء) فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادّاً (أي ممزوج بياضه بسواد) كَالْكُوزِ مُجَخِّياً (أي منكوساً) لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». (أخرجه مسلم)

- فإذا انجرف الإنسان في الفتنة، وتدهورت أخلاقه، وغرته الدنيا بزخارفها، ونسي الآخرة وجحيمها، مات قلبه، بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فِتَناً كَقِطَعِ الدُّخَانِ يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ أَقْوَامٌ خَلاَقَهُمْ وَدِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا». (أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ)

- لذلك كان النبي ﷺ يتعوذ من فتنة الصدر أي القلب، كما يتعوذ من عذاب القبر، وأرذل العمر، فعَنْ عُمَرَ ﷺ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ). (أخرجه أحمد في مسنده)

- قَالَ وَكِيعٌ: فِتْنَةُ الصَّدْرِ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ ولَمْ يَتُبْ مِنْهَا. (أحمد في مسنده)

- **أخيراً**: مما مر معنا نجد أن أهم ما ينبغي لمن أراد سلوك طريق التصوف طريق الذكر والإحسان والنجاح أن يسعى لامتلاك القلب السليم والمحافظة عليه.

المطلب السادس: السعي لتحقيق المقامات والأحوال التي تُبَلِّغهُ الطريق وتدلُّه عليه

- (قسم الصوفيون طريقهم إلى مراحل أو منازل أو مقامات فالمسمى واحد وإن اختلفت التسميات، وقد عمدوا إلى هذه التسمية تشبيهاً له بالطريق المادي حيث يجتازه المسافر مرحلة بعد مرحلة، فإذا تخطى مرحلة نزل ليستريح ويريح راحلته، ويتزود ليستأنف الرحلة من جديد). (التصوف والأخلاق، د. عبد الفتاح بركة ص ١٥٦)

- وقد اصطلح العلماء على تسميتها بالمقامات والأحوال وهو المشهور من أسمائها.

● **المقامات:** من الإقامة والثبات وعدم التغير أو التبدل، وقد عرف السراج الطوسي المقام بأنه: (مقام العبد بين يدي الله ﷻ فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله ﷻ). (اللُّمع ص٥٦)

- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]

- والمقامات يكتسبها العبد بالتزام الشريعة، ومجاهدة النفس، ومواصلة التربية.

- قال محمد بن واسع (فقيه ورع، من الزهاد، من أهل البصرة) رحمه الله:
(كابدت الليل عشرين سنة، فتنعمت به عشرين سنة).

(إحياء علوم الدين، الغزالي جزء ٦، ص٤٠٦)

- وقال مالك بن دينار (من رواة الحديث) رحمه الله: (حفظت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت بتلاوته عشرين سنة). (اللُّمع، السراج الطوسي ص ٦٦)

- ومثالها في عصر النبوة ما اتصف به الصحابة الكرام من مقامات استقاموا عليها طيلة حياتهم كالإخلاص والصدق والصبر والتوكل والزهد وغير ذلك.

- فكان أحدهم يقول: (مَا كَذَبْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ).

(أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

● **الأحوال**: من التحول والتغير والتبدل وعدم الدوام.

- ومعنى الأحوال: هو ما يَحُلُّ بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وهو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتذاب ولا اكتساب، وكان عارضاً سريع الزوال.

- وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: (الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم). (اللُّمع، السراج الطوسي ص ٦٦)

- والحال يأتي من فضل الله ﷻ، وليس من طريق المجاهدات والعبادات، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

- لذلك قال أهل التصوف: (الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود). (طلائع الصوفية، أبو العزائم جاد الكريم بكير ص٢٤)

- من هذا القبيل ما حدث من حال مع الصحابي الجليل حنظلة ﷺ: فقد روى حَنْظَلَةُ الأُسَيِّدِيُّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيراً قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (أخرجه مسلم)

- (ويذهب الإمام الغزالي في تعريفه للمقام و الحال مذهب السراج الطوسي فالوصف إنما يسمى مقاماً إذا ثبت وأقام، و إنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء ٤ ص ١٣٩)

- وبالرغم من تلك التعريفات إلا أن التداخل قائم بين المقام و الحال، و قد عدَّ السهروردي الضابط المفرق بينهما اللفظ والعبارة إذ (أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سُمي حالاً لتحوله والمقام مقاماً لثبوته واستقراره).

(عوارف المعارف ص ٤٢٣)

- (ويرى أهل التصوف أن كل فضيلة لا تستغني مقاماً عن حال إذ أن الحال مقدمة المقام فلابد من أن يوجد فيها حال ومقام ففي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام إذاً فالشيء بعينه قد يكون حالاً ثم يصير مقاماً لأنه يتحول أما المقام فهو ثابت). (المرجع السابق ص ٤٢٥)

- ولأهمية هذه المقامات والأحوال، ولقيام الطريق عليها كان لكل إمام من أئمة التصوف فيها مذهب.

- هذا وقد تحدث علماء التصوف عن مقامات وأحوال كثيرة وفصلوا فيها الحديث أتناول أهمها بالشرح المبسط في الباب التالي.